السنة الأولى ماستر أدب قديم السداسي الثاني

المحاضرة رقم 2

مضامين شعر المخضرمين

تمهيد: شكل القرآن منعرجا حاسماً في حياة العرب وأهم حدث في تاريخها، قبل أن يختلطوا ويتوحدوا ويحملوا رؤية واحدة يتخطى فيها الإنسان الوثنية إلى إله واحد معجز في خلقه وإبداعه، إنّ نبي الله غير حياة العرب وعقائدهم وفكرهم ورؤاهم للحياة والوجود، وهذا بفضل التحول النوعي من الوثنية إلى التوحيد، ومن البادية إلى الحاضرة، ومن الخيمة إلى العمران ومن القبيلة إلى الدولة وهي عوامل أربكت أعرافهم وسلطانهم. وهذا التغيير الذي أحدثه مجيء الإسلام كان له تداعيات وأثار على الشعر، الذي كان علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه، ومن الأهمية بما كان أن نقف عند موقف الإسلام من الشعر.

وضح القرآن موقفه من الشّعر في موضع واحد فقط في سورة الشعراء، قال تعالى: [وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾].

كما نزَّهَ الله نَبيَّه صلى الله عليه وسلم عن أن يقولَ شِعْرًا، فقالَ: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ يس 69.

اللوم والتهجين في الآيات الأولى من سورة الشعراء موجه لشعراء المشركين الذين سخروا من الرسول صلى الله عليه وسلم عن وأساءوا إليه فقط. قال ابن رشيق في كتابه "العمدة": " فأما احتجاج من لا يفهم وجه الكلام بقوله تعالى: والشعراء يتبعهم الغاوون فهو غلط وسوء تأوّل. لأن المقصود بهذا النص شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بالهجاء ومسّه بالأذى. فأما من سواهم من المؤمنين فغير داخلٍ في شيء من ذلك".

إلا الذين آمنوا: استثناء، والمقصود بهم الشعراء: المؤمنون، الصالحون، الذين يكثرون ذكر الله وتلاوة آياته، وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر، وإذا قالوا شعرا قالوه في توحيد الله والثناء عليه، والحكمة والموعظة والزهد ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم.

أما ما يعارضه القرآن فهو شعر الجاهلية الذي يتضمن الفحش، وشرب الخمر والكراهية القبلية، والانتقام، وباختصار الشعر الذي لا يتماشى وروح الإسلام، فالقضية قضية معان وأغراض وليست قضية الشعر بذاته، بدليل تسخير الشعر والشعراء لمساندة الدعوة والتصدي للمشركين، فقد أدى الشعر دوره في هجاء الكفار والمشركين فقد وقف الشعراء المسلمون خلف رسول الله –صلى الله عليه وسلم- ينصرونه بأسنتهم كما نصروه بألسنتهم، التاريخ الإسلامي يشهد بأن شعراء عظاما أمثال حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة استطاعوا أن يدافعوا بشعرهم عن أعراض المسلمين التي حاول شعراء المشركين

سلبها، كما نجح الشعراء المسلمون في تسجيل الأحداث التي تعرضت لها الدعوة الإسلامية، فأذكوا حرارة الوطنية بألحانهم وحماس الفدائية وأمتعوا أحاسيس الأمة.

أما قولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لأنْ يَمْتلِئَ جَوْفُ أحَدِكم قَيْحًا حتَّى يَرِيَه خيْرٌ له مِن أن يَمْتلِئَ شِعْرًا)) ، وهذا دَليلٌ واضِحٌ على أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد ذَمَّ الشِّعْرَ، وذَمَّ مَن يَحفَظُه ويَشغَلُ به وَقْتَه. والأمْرُ بخِلافِ ذلك؛ فإنَّ الإسلامَ ما حرَّمَ الشِّعْرَ ولا عابَه، بلْ كانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَستنشِدُ الشِّعْرَ، وكانَ أصْحابُه رُواةً للشِّعْرِ، وكانَتْ عائشةُ رَضيَ اللهُ عنها راويةً لشِعْرِ لَبيدٍ، وما برِحَ الصَّحابةُ والتَّابِعونَ يَستدِلُّونَ على تَفْسيرِ القُرآنِ بدَواوينِ الشِّعْرِ.

1. مصطلح المخضرم

1.1. لغة

توسعت المعاجم العربية فيما أوردته حول كلمة (مخضرم) توسعا شمل اختلافا في ضبطها معانيها، فمن معانيها **الكثرة والسعة**، كما جاء في لسان العرب لابن منظور "بئر خِضْرِمٌ: كثيرة الماء. وماء مُخَضْرَمٌ وخُضَارِمٌ كثير، والخِضْرِمُ: الكثير من كل شيء". وفي القاموس المحيط للفيروزآبادي معنى الخِضْرِمُ بالكسر الجواد الكثيرُ العطية، مشبه بالبحر الخِضْرِمِ وهو الكثير الماء.

ومن معاني المخضرم **القطع**، قال ابن منظور:" والخَضْرَمَةُ قطع إحدى الأذنين، وهي سمة الجاهلية، فخضرم الأذن قطع من طرفها شيئا وتركه يَنُوسُ. خطبنا الرسول صلى الله عليه وسلم يوم النحر على ناقة مُخَضْرَمَةٍ."

وثالثا، بمعنى **الخلط**، قال صاحب لسان العرب: " وقال ابن خالويه: خَضْرَمَ خَلَّطَ، ولكن ابن رشيق ذكر المعنى السابق والكلمة عنده حَضْرَمَ بدلاً عن خَضْرَمَ، قال: "يقال شاعر محضرم –بحاء غير معجمة- مأخوذ من الحضرمة وهي الخَلْطُ".

ورابعا، بمعنى **الهجين**، وفي ذلك قال ابن منظور: "ورجل مُخضْرَمٌ: أبوه أبيض وهو أسود. ورجل مَخضْرَمٌ ناقص الحسب، وقيل هو الذي ليس بكريم النسب."

وخامسا، الشاعر المُخضْرَمٌ بمعنى **الشاعر الذي أدرك عهدين، الجاهلية والإسلام**، يقول ابن منظور: " ورجلٌ مُخضْرَمٌ إذا كان نصف عمره في الجاهلية ونصفه في الإسلام، وشاعر مُخضْرَمٌ: أدرك الجاهلية والإسلام مثل لبيد وغيره ممن أدركهما". وهذا هو المعنى الذي بقي متداولا وشائعا بين اللغويين والنقاد حول مصطلح المخضرم.

2.1. اصطلاحا

اهتم النقاد بالشعر الذي ألف في عصر صدر الإسلام خاصة من الشعراء الجاهليين الذين أدركوا الإسلام وهم الشعراء الذين اتفقوا على تسميتهم بالمخضرمين، وأعطوا لهم مفاهيم شتى، منها قول ابن سلام الجمحي: " ففصّلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام،

والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام". وقال عن الشاعر: "وشاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام مثل لبيد وغيره ممن أدركها".

وقال السيوطي في شرح التقريب: "المخضرم في اصطلاح أهل اللغة هو الذي عاش نصف عمره في الجاهلية ونصفه في الإسلام" ثم زاد بعد ذلك قائلا: "والمراد بإدراك الجاهلية ما قبل البعثة" ثم زاد بعد ذلك قائلا: " فسميّ كل من أدرك الجاهلية والإسلام مُخَضْرَمًا".

وعدّ ابن رشيق المخضرمين طبقة من طبقات الشعراء، فقال: «طبقات الشعراء أربع: جاهلي قديم، ومخضرم وهو الذي أدرك الجاهلية والإسلام... الخ»، في كلامه إقرار بأن الخضرمة جسر ممتد، أوله في الجاهلية وآخره في الإسلام، والعابرون الذين عبروه من الشعراء هم هذه الطبقة التي ذكرها ابن رشيق.

2. طبيعة شعر المخضرمين

لقد أسلفنا القول في موقف الإسلام من الشعر، ولهذا الموقف تأثيرا بالغا في تحول الشعر في عصر صدر الإسلام، فقد وجد الشاعر نفسه إما مسلما يسخر شعره للدعوة المحمدية وإما مشركا يهجو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهنا شاع بين النقاد ضعف شعر هذه المرحلة من الناحية الفنية، وبداية من القرن الثاني للهجرة تحدث الأصمعي عن شعر حسان بن ثابت وروى عنه ذلك ابن قتيبة، وقال:" الشعر نكدٌ بابُه الشرّ، فإذا دخل الخيرَ ضعُف، هذا حسّان [بن ثابت] فحلٌ من فحول الجاهلية، فلما دخل الإسلامَ سقط شعْرُه" وقال مرّة أخرى :شعر حسّان في الجاهليّة من أجود الشعر، فقطع متنه في الإسلام، لحال النبيّ صلى الله عليه وسلم. وكان حسّان يفد على ملوك غسّان بالشام، وكان يمدحهم. وهذا إقرار صريح من الأصمعي أن موضوعات صدر الإسلام لا يحسن معها الشعر، على عكس موضوعات الجاهلية التي خرج من رحمها الشعر وترعرع ونمى وازدهر.

وأرجع ضعف شعر المخضرمين إلى انشغالهم بالجهاد، يقول ابن سلاّم الجمحي: " كان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم، ومنتهى حُكمهم، وبه يأخذون، وإليه يصيرون. قال ابن سلام: قال ابن عون، عن ابن سيرين، قال: قال عمر بن الخطاب: كان الشعر علمَ قومٍ لم يكن لهم علمٌ أصحُّ منه = قال ابن سلَّام: فجاء الإسلام، فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارسٍ والرُّوم، ولَهَتْ عن الشعر وروايته. فلما كَثُرَ الإسلام، وجاءت الفتوح، واطمأنت العربُ بالأمصارِ، راجعوا رواية الشعر، فلم يَؤُولوا إلى ديوانٍ مُدوَّنٍ، ولا كتاب مكتوبٍ، وأَلْفَوْا ذلك، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقلَّ ذلك، وذهب عليهم منه كثير". لكن هناك من انتقد هذا الرأي ونفى أن يكون شعر المخضرمين ضعيف خاصة شعر حسان، إنما هو تحول طبيعي تماشيا والمرحلة التي مرّ بها الشاعر العربي آنذاك.

3. موضوعات شعر المخضرمين:

قال الشعراء المخضرمون في الأغراض الشعرية الجاهلية نفسها، لكن المعاني اختلفت، فما هي المعاني أبقى عليها الشعر المخضرم وما هي المعاني الجديدة التي ضمها هذا الشعر ؟

1.3. المدح

يعد المدح أكثر الأغراض تداولا بين شعراء الجاهلية، وكانت له غايات متعددة منها التكسب، والحماسة، لكن لا يمكن إنكار المعاني النبيلة الكرم والإباء والشجاعة والعدل والسماحة التي ضمها المدح في العصر الجاهلي، مع مضامين أخرى ضمها المدح في العصر الجاهلي كشرب الخمرة والنساء وإثارة النعرات والحث على الثأر وإذكاء الفتن. ولم يكن يأبه الشاعر الجاهلي بصدق أو كذب هذه المعاني، لكن ما يهمه هو ووقعها على الممدوح وتأثيرها عليه، والمقابل الذي سيناله جزاء ذلك.

بعد مجيء الإسلام استمرت المعاني الشريفة في المدح، لأنها تلائم قيم الدين وتعاليمه، وليس في شعر صدر الإسلام فقط لكن في العصور المختلفة، ولم بعد العطاء والتكسب هو الدافع الأول كما كان من قبل، فلم يفتح الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أحد من خلفائه الراشدين بيت مال المسلمين ليجيز الشعراء على قولهم إذا أحسنوا، بل كل ما كانوا يصنعونه التصدق بكلمة طيبة أو دعوة صالحة لذلك التزم الشعراء الصدق في مديحهم، فلم يعد الشاعر يمدح الرجل إلا بما فيه. ومن ثم كانت المعاني الإسلامية والفضائل والفضائل النفسية الخالصة هي أول تطور موضوعي يدخل شعر المديح منذ ظهور الإسلام.

وتظهر هذه المعاني في شعر المخضرمين في نماذج عديدة تظهر فيه الروح الإسلامية، منها قصيدة "بانت سعاد لكعب بن زهير، التي قالها في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن أهدر دمه لشعر قاله فيه، نجدها تشتمل على بعض الأوصاف الحسية التي وصف به الرسول صلى الله عليه وسلم ومن أيده من قريش في قوله:

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ
نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ
مَهْلاً هَدَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْ قُرْآنِ فِيهَا مَوَاعِيظ وَتَفْصِيلُ

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُولُ
فِي عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُولُوا
زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلاَ كُشُفٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلاَ مِيلٌ مَعَازِيلُ

يرى البعض أن الشعراء المخضرمين لم يتخلوا في مدحهم عن المعاني الحسية الجاهلية ونهجوا أسلوب الجاهلية في المدح وهذه القصيدة خير دليل على هذا، فقد افتتحها بالنسيب ثم تعرض لبعض الصفات الحسية التي تتنافى مع وجهة النظر الإسلامية. لكن هناك من يرى أن هذا الحكم مجحف في حق الشعراء المخضرمين، فالقصيدة أنشدها الشاعر في حضرة السول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ولم يبدي امتعاضه من المعاني التي ذكرت لعلمه أنها

غير مقصودة في ذاتها، بل إنها تقاليد ترسخت لدى الشاعر في قول الشعر أو في القصيدة العربية. ويمكن تقسيم موضوعات المدح لدى الشعراء المخضرمين إلى:

1. مدح الرسول صلى الله عليه وسلم

عندما تمكن الإسلام من قلوب الشعراء المخضرمين توجهوا بمديحهم إلى قائد الأمة وشفيعها النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي كان يختلف عن شيخ القبيلة أو زعيمها، فمدحه يكون بتعداد فضائله ومكارم الأخلاق التي جاء بها والقيم الاجتماعية السماحة وأسس القيادة والعدل والحكم الراشد، ومن هنا ظهر في مديحهم عدة معاني جديدة، منها:

-الهداية: من أهم المعاني المستحدثة في المدح، حيث تمّ تشبيه الرسول بالشمس التي أشرقت على الأمة وبالقمر الذي أضاء عتمتها، فهدها إلى سواء السبيل، وأول من مدح الرسول بهذه الخصال، هو العباس بن المطلب، يقول:

من قبلها طبت في الظلال وفي * مستودعٍ حيث يخصف الورقُ
ثم هبطت البلاد لا بشرُ * أنت ولا مضغةٌ ولا علقُ
بل نطفة تركبُ السفينَ وقد *ألجم نسرا وأهله الغرقُ
أوردت نار الخليل مكتتماً * تجولُ فيها ولست تحترقٌ
تنقل من صالب إلى رحمٍ * إذا مضى علم بدا طبقُ
حتى احتوى بيتك المهيمن من * خندفَ علياء تحتها النُطُقٌ
وأنت لما ولدت أشرقت الأرْ * ضُ وضاءت بنورك الأفقُ
ونحن في ذلك الضياء وفي النـــ *ور إلى سبيل الرشاد نخترقُ

والمقصود بالنور والضياء في هذه الأبيات، هو النور المحمدي الذي أشرق على الأرض ليهدي من عليها إلى سبيل الخير والرشاد بعد ما كانوا في الظلمات.

ويقرن كعب بن مالك الأنصاري هذا النور المحمدي بسيرته الشريفة العادلة، فهو لا ينطق إلا بالحق، يقول الشاعر:

سَائِلْ قريشاً غداةَ السَّفْحِ مِنْ أُحُدِ ماذا لَقِينا وما لاقوا من الهَرَبِ
كنّا الأُسُودَ وكانوا النُّمورَ إذ زَحَفُوا ما إنْ نراقِبْ مِنْ آلٍ ولا نَسَبِ
فَكَمْ تَرَكْنا بِها مِنْ سَيِّدٍ بَطَلٍ حامي الذِمارِ كريمِ الجَدّ والحَسبِ
فِينا الرسُولُ شِهابٌ ثُمَّ يَتْبَعُهُ نُورٌ مُضيءٌ لَهُ فَضْلٌ على الشُّهُبِ
الحَقُّ مَنْطِقُهُ والعَدْل سِيرَتُهُ فَمَنْ يُجبْهُ إليهِ يَنْجُ مِنْ تَبَبِ
نَجْدُ المقدَّمِ ماضي الهمّ مُعْتَزِمٌ حينَ القلوبُ على رجفٍ منَ الرُّعُبِ

يَمْضي ويذْمرُنَا عَنْ غيرِ مَعْصِيةٍ كأَنَّه البَدْرُ لم يُطْبَعْ على الكَذِبِ

بَدَا لنا فاتَّبَعْناهُ نُصَدِّقُهُ وَكَذَّبه فكُنَّا أسْعَدَ العَربِ

فالنور في هذه الأبيات تعبير عن الهداية، وهذه المعاني المضيئة كثيرة في شعر المخضرمين، أما حسان بن ثابت فيعبر عن إحباط القوم الذين رحل عنهم النبي صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إلى المدينة ليحل على قوم آخرين بهذا النور ليهديهم، فما أسعدهم بهذا النور والضياء، يقول:

لَقَد خابَ قَومٌ غابَ عَنهُم نَبِيُّهُم وَقَد سُرَّ مَن يَسري إِلَيهِم وَيَغتَدي

تَرَحَّلَ عَن قَومٍ فَضَلَّت عُقولُهُم وَحَلَّ عَلى قَومٍ بِنورٍ مُجَدَّدِ

هَداهُم بِهِ بَعدَ الضَلالَةِ رَبُّهُم وَأَرشَدَهُم مَن يَتبَعِ الحَقَّ يَرشُدُ

وَهَل يَستَوي ضُلّالُ قَومٍ تَسَفَّهوا عَمىً وَهُداةٌ يَهتَدونَ بِمُهتَدِ

لَقَد نَزَلَت مِنهُ عَلى أَهلِ يَثرِبٍ رِكابُ هُدىً حَلَّت عَلَيهِم بِأَسعَدِ

نَبِيٌّ يَرى ما لا يَرى الناسُ حَولَهُ وَيَتلو كِتابَ اللَهِ في كُلِّ مَسجِدِ

وَإِن قالَ في يَومٍ مَقالَةَ غائِبٍ فَتَصديقُها في اليَومِ أَو في ضُحى الغَدِ

لِيَهنِ أَبا بَكرٍ سَعادَةُ جَدِّهِ بِصُحبَتِهِ مَن يُسعِدِ اللَهُ يَسعَد

-الرسالة المحمدية رسالة سماوية: حاول الشعراء المخضرمون تأكيد صلة الرسالة بالسماء في أشعارهم وأنها وحي من الله عزّ وجلّ من أجل تبليغ الناس وهدايتهم إلى الطريق الصحيح، فنرى حسان بن ثابت يطرق هذا المعنى الجديد، فيمدح الرسول صلى الله عليه وسلم ويعدد الفضائل التي اتفق عليها النقاد، ثم يذكر اختيار الله لمحمد صلى الله عليه وسلم من بين خلقه لتبليغ رسالته، فيقول:

يا ركن معتمد وعصمة لائذ ** وملاذ منتجع وجار مجاور
يا من تخيره الإله لخلقه ** فحباه بالخلق الزكي الطاهر
أنت النبي وخير عصبة آدم ** يا من يجود كفيض بحر زاخر
ميكال معك وجبرئيل كلاهما ** مدد لنصرك من عزيز قادر

-تأييد الملائكة لرسول صلى الله عليه وسلم: هذه كذلك من المعاني المستحدثة، وهي تأييد الملائكة للرسول صلى الله عليه وسلم ونصرته على القوم الكافرين، وطرق هذا المعنى الشعراء المخضرمين، في أشعارهم، ومنه قول كعب بن مالك الأنصاري:

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ نَتْبَعُ أَمْرَهُ ...إِذَا قَالَ فِينَا الْقَوْلَ لَا نَتَطَلَّعُ
تَدَلَّى عَلَيْهِ الرُّوحُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ ...يُنَزَّلُ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ وَيُرْفَعُ
نُشَاوِرُهُ فِيمَا نُرِيدُ وَقَصْرُنَا ...إِذَا مَا اشْتَهَى أَنَّا نُطِيعُ وَنَسْمَعُ

وقول حسان بن ثابت:

يامن تخيّره الإله لخلقه فحباه بالخلق الكريم الطاهر

أنت النبي وخير عصبة آدم يامن يجود كفيض بحر زاخر

ميكال معك وجبرئيل كلاهما مدد لنصرك من عزيز قادر

وتناول الشعراء المخضرمين معاني جديدة أخرى كمعجزات الرسول صلى الله عليه وسلم كمعجزة الإسراء والمعراج وشق الصدر، وتطرقوا في عرهم إلى أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم كالحياء مثل قول أبي دهبل الجمحي:

إن البيوت معادن فنجاره ... ذهب وكل بيوته ضخم

عقم النساء فما يلدن شبيهه ... إن النساء بمثله عقم

متهلل بنعم، بلا متباعد ... سيان منه الوفر والعدم

نزر الكلام من الحياء تخاله ... ضمناً وليس بجسمه سقم

كما تحدث الشعراء عن **شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته يوم الحشر**، فتغنوا بشفيعهم يوم لا ينفع مال ولا بنون، وهذا المعنى الجديد صاغه عبد الله بن رواحة في شعره، قائلا:

إِنّي تَفَرَّستُ فيكَ الخَيرَ أَعرِفُهُ وَاللَهُ يَعلَمُ أَن ما خانَني البَصَرُ

أَنتَ النَبِيُّ وَمَن يُحرَم شَفاعَتَهُ يَومَ الحِسابِ فَقَد أَزرى بِهِ القَدَرُ

فَثَبَّتَ الله ما آتاكَ مِن حَسَنٍ تَثبيتَ موسى وَنصراً كَالَّذي نُصِروا

2. مدح الصحابة الخلفاء الراشدين

وإلى جانب مدح الشعراء المخضرمين الرسول صلى الله عليه وسلم ، مدحوا الخلفاء والصحابة رضوان الله عليهم، وكانوا كذلك يتحرون الصدق في مديحهم إياهم، فذكروا أجلّ مناقبهم وفضائلهم، كتأييد الله لهم بالنصر والمعونة والحفظ والتسديد، وبذلهم أنفسهم ومفارقتهم أهلهم في طاعة الله ورسوله وملازمتهم النبي صلى الله عليه وسلم ونصرته على

القوم الظالمين، وهذا حسان بن ثابت يتحدث عن الصديق أبا بكر، الذي لازم الرسول صلى الله عليه وسلم في الغار ونصرته له، يقول:

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد *** طاف العدو به إذ أصعد الجبلا

وكان حبّ رسول الله قد علموا *** من البرية لم يعدل به رجلا

ويشيد كعب بن زهير بالأنصار وموقفهم من الرسول صلى الله عليه وسلم ونصرتهم له وبلائهم في محاربة المشركين، فيقول:

مَن سَرَّهُ كَرَمُ الحَياةِ فَلا يَزَل في مِقنَبٍ مِن صالِحي الأَنصارِ

تَزِنُ الجِبالَ رَزانَةً أَحلامُهُم وَأَكُفُّهم خَلَفٌ مِنَ الأَمطارِ

المُكرِهينَ السَمهَرِيّ بِأَذرُعٍ كَصَواقِلِ الهِندِيّ غَيرِ قِصارِ

وَالناظِرينَ بِأَعيُنٍ مُحَمَرَّةٍ كَالجَمرِ غَيرِ كَليلَةِ الإِبصارِ

وَالذائِدينَ الناسَ عَن أَديانِهِم بِالمِشرَفِيّ وَبِالقَنا الخَطّارِ

وَالباذِلينَ نُفوسَهُم لِنَبِيِّهِم يَومَ الهِياجِ وَقُبَّةِ الجَبّارِ

كما تغنّ الشعراء المخضرمون بأخلاق الصحابة والخلفاء الراشدين، وجعلوا منهم قدوة لغيرهم يهتدون بهديهم.

3. مدح الذات الإلهية

استحدث المخضرمون لونا جديدا من المديح توجهوا به إلى الذات الإلهية، وضمنوا أشعارهم عديد السّمات الإسلامية، فجاء شعرهم أقرب إلى الدعاء والمناجاة، فنرى حسان بن ثابت يتوجه إلى الله سبحانه وتعالى بهذه المناجاة التي يعترف فيها بوحدانيته وينزهه عن الشرك ويقر بنعائمه، فيقول:

وأنتَ إلهَ الخلقِ ربي وخالقي بذلكَ ما عمرتُ فيا لناسِ أشهدُ
تَعَالَيْتَ رَبَّ الناسِ عن قَوْلِ مَن دَعا سِوَاكَ إلهاً، أنْتَ أعْلَى وَأمْجَدُ
لكَ الخلقُ والنعماءُ، والأمرُ كلهُ فإيّاكَ نَسْتَهْدي، وإيّاكَ نَعْبُدُ

ومما تقدم عرضه، نرى أن المديح في شعر المخضرمين لم يقتصر على ذكر محاسن الرسول صلى الله عليه وسلم الخلفية والخلقية فقط، لكنه كان بمثابة السند والدعامة للدعوة المحمدية، أسهم في نشر رسالة الإسلام والوقوف في وجه الكفار وتأييد النبي صلى الله عليه وسلم.

2.3. الهجاء

غرض الهجاء مثله مثل المدح عرف في الشعر الجاهلي، وكان من الأغراض الأكثر تداولا بين العراء بعد غرض المدح، فكا للمديح وظائف يؤديها، كان للهجاء أيضا وظائفه، وحاجات يؤديها، وعرف الهجاء في الشعر الجاهلي بذكر المعايب الخَلقية والخُلقية، ومع مجيء الإسلام نهى عن هذا النوع من الأشعار وجعلتها إثما كبيرا، لأنها تتنافى وتعاليم هذا الدين.

لكن الهجاء في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أخذ منعطفا آخر بتغيير الأسباب الدافعة إليه فبد استقرار الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة بدأت شوكة المسلمين تقوى خاصة بعد اتحاد الأوس والخزرج والمهاجرين والأنصار، بدأت عداوة المشركين واليهود للمسلمين تظهر جلية خاصة في أشعار عبد الله بن الزبعري وأبو سفيان بن الحارث وضرار بن الخطاب وغيرهم، فخاضوا في الأعراض والأنساب، فاشتكى المسلمون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم " قولوا لهم كما يقولون لكم"، وهذا معناه أن الرسول أمر بالرد على هؤلاء المشركين، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "اهجوا قريشا فإنه أشد عليها من رشق بالنبل فأرسل إلى عبد بن رواحة فقال اهجهم فهجاهم فلم يرض فأرسل إلى كعب بن مالك ثم أرسل إلى حسان بن ثابت فلما دخل عليه قال حسان قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه ثم أدلع لسانه فجعل يحركه فقال والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها وإن لي فيهم نسبا حتى يلخص لك نسبي فأتاه حسان ثم رجع فقال يا رسول الله قد لخص لي نسبك والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين قالت عائشة فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله وقالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هجاهم حسان فشفى واشتفى قال حسان

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء

هجوت محمدا برا حنيفا رسول الله شيمته الوفاء

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

ثكلت بنيتي إن لم تروها تثير النقع من كنفي كداء

يبارين الأعنة مصعدات على أكتافها الأسل الظماء

تظل جيادنا متمطرات تلطمهن بالخمر النساء

فإن أعرضتمو عنا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء

وإلا فاصبروا لضراب يوم يعز الله فيه من يشاء

وقال الله قد أرسلت عبدا يقول الحق ليس به خفاء

وقال الله قد يسرت جندا هم الأنصار عرضتها اللقاء

لنا في كل يوم من معد سباب أو قتال أو هجاء

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

جبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس له كفاء

وقد تعددت مضامين الهجاء لدى الشعراء المخضرمين، منها الذود عن الإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم كما تمثله الأبيات السابقة، التعيير بالكفر وعبادة الأوثان، يقول حسان بن ثابت:

أَمّا قُرَيشٌ فَإِنّي غَيرُ تارِكِهِم حَتّى يُنيبوا مِنَ الغِيّاثِ لِلرَشَدِ

وَيَترُكوا اللاتَ وَالعِزّى بِمَعزِلَةٍ وَيَسجُدوا كُلُّهُم لِلخالِقِ الصَمَدِ

وَيَشهَدوا أَنَّ ما قالَ الرَسولُ لَهُم حَقٌّ وَيوفوا بِعَهدِ الواحِدِ الأَحَدِ

وكذلك مضامين أخرى **كتغرير الشياطين للمشركين، ونقض العهد وعصيان الرسول صلى الله عليه وسلم وعدم الوفاء، وهجاء المرتدين والمنافقين واليهود** ولا يسع الحيز المكاني للتمثيل لكل معنى من هذه المعاني الشعرية عند الشعراء المخضرمين.

3.3. الفخر

كان الشاعر الجاهلي دائم الفخر بنفسه وشجاعته وبنسبه وقبيلته، وعشيرته، وأمجادها، وبعد ظهور الإسلام كان محظورا على الشعراء أن يفخروا بقبائلهم أو ببلائهم حفاظا على روح الأمة وتجنب إثارة النعرات والعصبيات، لكن الإسلام كما رأينا لا يمنع المسلمين من الاعتزاز بأنفسهم الفخر بقومهم وبلائهم في سبيل الذود عن العقيدة، والانتماء إلى الإسلام، ولذلك نرى النبي صلى الله عليه وسلم يسأل النابغة الجعدي حينما أنشده قصيدته الرائية يفتخر فيها بقومه وشجاعته وبلغ قوله:

بَلَغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَثَرَانَا ... وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :إِلَى أَيْنَ يَا أَبَا لَيْلَى، فَقُلْتُ إِلَى الْجَنَّةِ، فَقَالَ :إِنْ شَاءَ اللَّهُ".

ومن المضامين الإسلامية في شعر الفخر عند المخضرمين **الفخر بأقوام المسلمين الذين نصروا الإسلام ورسوله**: من ذلك قول حسان بن ثابت:

قَومي الَّذينَ هُمُ آوَوا نَبِيَّهُمُ وَصَدَّقوهُ وَأَهلُ الأَرضِ كُفّارُ

إِلّا خَصائِصَ أَقوامٍ هُمُ سَلَفٌ لِلصالِحينَ مَعَ الأَنصارِ أَنصارُ

مُستَبشِرينَ بِقَسمِ اللَهِ قَولُهُمُ لَمّا أَتاهُم كَريمُ الأَصلِ مُختارُ

أَهلاً وَسَهلاً فَفي أَمنٍ وَفي سِعَةٍ نِعمَ النَبيُّ وَنِعمَ القَسمُ وَالجارُ

كما افتخر الشعراء **بولائهم للرسول صلى الله عليه وسلم ونصرتهم له وبتقوى الله والإشادة بنعمه، وبانتصارات جند الله على القوم المشركين وبنيل الشهادة في سبيل الله** .

4.3. الرثاء

الرثاء من أهم الأغراض الشعرية القديمة، وعبارة عن تأبين الميت بذكر ألم الفجع والفراق ومدح خصال المتوفي، وكان الرثاء يسلك في الجاهلية ثلاث طرق، هي: الندب والتأبين والتعزية، وبعد مجيء الإسلام هذب هذه الطرق وحث على الصبر لأن هناك حياة أبدية في انتظار العبد المحسن لله، وكان رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم من أهم مواضيع الرثاء في شعر المخضرمين، فرثاه الشعراء من حدب وصوب، ولعل مرثية حسان بن ثابت أشهر من نار على علم، يقول:

بَطَيبَةَ رَسمٌ لِلرَسولِ وَمَعهَدُ مُنيرٌ وَقَد تَعفو الرُسومُ وَتَهمَدِ

وَلا تَنْمَحي الآياتُ مِن دارِ حُرمَةٍ بِها مِنبَرُ الهادي الَذي كانَ يَصعَدُ

وَواضِحُ آثارٍ وَباقي مَعالِمٍ وَرَبعٌ لَهُ فيهِ مُصَلّى وَمَسجِدُ

بِها حُجُراتٌ كانَ يَنزِلُ وَسطَها مِنَ اللهِ نورٌ يُستَضاءُ وَيوقَدُ

مَعارِفُ لَم تُطمَس عَلى العَهدِ آيُها أَتاها البِلى فَالآيُ مِنها تُجَدَّدُ

عَرِفتُ بِها رَسمَ الرَسولِ وَعَهدَهُ وَقَبراً بِها واراهُ في التُربِ مُلحِدُ

ظَلَلتُ بِها أَبكي الرَسولِ فَأَسعَدَت عُيونٌ وَمِثلاها مِنَ الجِفنِ تُسعَدُ

تَذَكَّرُ آلاءَ الرَسولِ وَما أَرى لَها مُحصِياً نَفسي فَنَفسي تَبَلَّدُ

مُفَجَّعَةً قَد شَفَّها فَقدُ أَحمَدٍ فَظَلَّت لِآلاءِ الرَسولِ تُعَدِّدُ

وَما بَلَغَت مِن كُلِّ أَمرٍ عَشيرَهُ وَلَكِن لِنَفسي بَعدُ ما قَد تَوَجَّدُ

أَطالَت وُقوفاً تَذرِفُ العَينُ جُهدَها عَلى طَلَلِ القَبرِ الَذي فيهِ أَحمَدُ

فَبورِكتَ يا قَبرَ الرَسولِ وَبورِكَت بِلادٌ ثَوى فيها الرَشيدُ المُسَدَّدُ

وَبورِكَ لَحدٌ مِنكَ ضُمِّنَ طَيِّباً عَلَيهِ بِناءٌ مِن صَفيحٍ مُنَضَّدُ

تَهيلُ عَلَيهِ التُربَ أَيدٍ وَأَعيُنٌ عَلَيهِ وَقَد غارَت بِذَلِكَ أَسعُدُ

لَقَد غَيَّبوا حِلماً وَعِلماً وَرَحمَةً عَشِيَّةَ عَلَّوهُ الثَرى لا يُوَسَّدُ

وَراحوا بِحُزنٍ لَيسَ فيهِم نَبِيُّهُم وَقَد وَهَنَت مِنهُم ظُهورٌ وَأَعضُدُ

يُبَكّونَ مَن تَبكي السَمَواتُ يَومَهُ وَمَن قَد بَكَتهُ الأَرضُ فَالناسُ أَكمَدُ

وكذلك فجع أبو سفيان بن الحارث بعد إسلامه فطال ليله لشدة وقع الحادثة عليه وعلى المسلمين، ورأى في البكاء عزاء له ولهم، قال:

أَرِقْتُ فَبَاتَ لَيْلِي لا يَزُولُ ولا أَدْري بِحَقٍّ مَا أَقولُ

كَأَنَّ اللَّيْلَ لَيْسَ لَهُ انْتِهَاءٌ ولَيْلُ أَخِي المُصِيبَةِ فِيْهِ طُولُ

وأَضْحَتْ أَرْضُنَا مِمَّا عَرَاهَا بِنَا تَهوي وقَدْ كَادَتْ تَزُولُ

تَكَادُ الأَرْضُ تَطْوِيْنَا جَمِيْعَاً تَكَادُ بِنَا جَوانِبُهَا تَمِيلُ

لَقَدْ عَظُمَتْ مُصِيبَتُنَا وجَلَّتْ وَحُقَّ على مَهَانِتِنَا العَوِيلُ

رَسُولَ اللهِ مَعْذِرَةً حَبِيبِي لِمَا فَعَلَ العِدَا نَفْسي تَسِيلُ

فَمَا رَسَمَ الأعادي مِنْ رُسُومٍ تُسيئُ لَكُمْ هوَ الخَطْبُ الجَلِيْلُ

وكيْفَ تَطِيْبُ في الدُّنيَا حَيَاةٌ إذا مَا سُبَّ في الأَرْضِ الرَّسُولُ

نَبيٌّ كَانَ يَجْلو الشَّكَ عَنَّا نبيُّ الخَيْرِ لَيْسَ لَهُ مَثِيْلُ

4. خصائص شعر المخضرمين

-جدد الشعراء المخضرمين في مضامين شعرهم ، فتحدثوا عن معاني جديدة كشفت عن الظواهر الإسلامية في مديحهم للرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان مصدرا للهداية.

-تغيرت دوافع الهجاء عند الشعراء المسلمين المخضرمين، كما تغيرت معانيه، لأنه غالبا ما كام موجها للمشركين من شعراء مسلمين يذودون عن الإسلام وأتباعه.

-أضحى شعر الفخر عند الشعراء المخضرمين بعد أن كان فخرا بالقبائل والأنساب، وبلاء الأفراد فخرا إسلاميا جديدا، يفتخر الشعراء بانتمائهم للإسلام وولائهم لنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم ونيلهم الشهادة في سبيل الله.

-فقد المسلمين للرسول صلى الله عليه وسلم جعلهم يستشعرون الفزع والجزع لكن إيمانهم بقضاء الله وقدره، جعلهم يضمنون أشعارهم في رثاء حبيبهم صلى الله عليه وسلم مفعما بالمعاني والحكم الإسلامية.

- لا نجد فرقا من حيث البنية اللغوية والتصورية بين الشعر المخضرم والشعر الجاهلي، فقد كان هذا الشعر قريب العهد بالجاهلية حافظ على التقاليد الفنية في القصيدة العربية.

- إن المعاني الإسلامية الجديدة جعلت الشعر المخضرم أقرب إلى شعر المواعظ والحكمة منه إلى الشعر الغنائي الذي عرف عن العرب.

-ازدهر الشعر المخضرم كما تقدم في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لكن بعد وفاته تعرض الشعراء إلى نوع من الاضطهاد والزجر مما جعله يتراجع، لكن هيهات فالعرب لا تدع الشعر حتى تدع الإبل الحنين فقد عاد الشعر إلى ديدنه الأول في الجاهلية في العصور اللاحقة بداية بالعصر الأموي.